

تشخيص مهمة السنوسي كمدخل إلى فكره

(832 - 895 هـ / [1429 - 1490])

أ. بوقلي حسن

جامعة تلمسان

السنوسي صاحب العقائد ، هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب ، ولد بتلمسان حوالي 832 هـ / 1429 م ، أي بعد ثلاث وعشرين سنة من وفاة عبد الرحمن بن خلدون ؛ وتوفي بها في 895 هـ / 1490 م ' إنه من الشخصيات الفكرية التي أخذت في أواخر القرن الماضي ، تعرف اهتمام الباحثين بعد أن طمستها السنين الطوال والنيات المغرضة قرونا وعصورا. وإذا كانت الذاكرة الشعبية قد صحبته منذ كان حيا إلى يومنا هذا ، فإن البحث العلمي قد تأخر كثيرا عن الموعد . والحقيقة أنه شغل الناس ، وامتألت به المكتبات ،² ولم يظهر كما ظهر العلماء السادات .

اخترت الحديث عن مهمته كمدخل إلى فكره ، لأنها تشكل مبدأ نشاط الرجل ، وقاعدة أعماله . فما هي هذه المهمة التي كانت إذن ، وراء الرجل ؟
للرد على هذا السؤال ، يتعين علينا الوقوف على العناوين الثلاثة الآتية:

أولا : مصادر مهمة السنوسي

ثانيا : نشاط مهمته

ثالثا : المبادئ التي تقوم عليها مهمته

أولاً: مصادر مهمته

عاش السنوسي في محيط ، أعتقد أنه لا يختلف كثيراً عن المحيط الذي يجتصتنا ، وذلك من حيث تعدد عوائد الناس وطبائعهم ، وتفرق انشغالاتهم وتوجهاتهم ، وانحلال أخلاقهم ، وتباعد فهمهم لدينهم .

فأراد أن يعرف الأسباب التي كانت وراء سوء أحوالهم بقصد التحكم فيها . فوقف للملاحظة واقعهم وتقييد معطياته وتحليلها ، وخلص إلى أنهم يعانون من آفات اجتماعية وخلقية وسياسية وفكرية وعقائدية ونفسية خطيرة . وشعر بأن له مهمة التكفل بمعالجة هاته الآفات ؛ ولم ير من الوسائل في ذلك ، أنجح من العودة إلى الأصل اليناع للإسلام . ويُقصد بهذا الأصل ، عقيدة التوحيد ، توحيد الله ، وجمع الشمل ولم الشّتات وفتح المجال للطمأنينة والتقى .

وفي هذا المحيط ، لم يسلم السنوسي من إذاية الناس له من أهل الحسد والبغض . يقول : كان بعض ممن يدعي العلم ، يضمّر له الحقد ويحكي أنه لما ألف بعض عقائده ، نزل عليه بالنكران كثير من علماء وقته ، وتكلموا بما لا يليق ؛ " فصار [بعضهم] ينقل عنا بحسب فهمه الأعرج ، ودينه الأعرج من الكلمات الكاذبة ما يوجب الإذاية في النفس والدين ، ويُقبل ذلك منه . ويُشيعه من هو على شاكلته " . وفي مجال التعاليم الدينية ، يقول : انتشر التقليد عندنا ، في عقائد الإيمان في أوساط العوام بوجه أخص ، ونشأ الصبيان غصباً عنهم ، على دين آبائهم ونحلتهم دون إعمال فكر ولا اقتناع .

وأكثر الناس اليوم ، ليس في درجة الاعتقاد التقليدي المطابق ، بل في درجة الاعتقاد الفاسد والجهل المركب . وأكثر من هذا ، فلقد انتشرت بلوى الإفتاء

المضلّل^٣ ، وإصدار الأحكام المبيتة والفاصلة على إيمان الناس وموقعهم من الكفر . وفي مجال الفكر ، حذر في عصره ، من ذبوع أفكار الوهم وانتشار مذاهب الفلسفة ، والاعتزال ، والتجسيم ، والباطنية ، والظاهرية ، والتصوف المضلل ، ومن مكر الدجاجة .

وفي مجال التربية والتعليم ، يشير إلى الأمية التي اجتاحت هذا الزمان ، الكبار من الرجال والنساء ، وإلى عدم الاكتراث بتعليم عقائد الدين لفائدة النساء والصبيان فضلا عن الإماء والعبيد ، وعدم الاعتناء بإعمال العقل في التدريس ، وإهمال الكتاب ، وانتشار المطولات ، وتجبر المعلم .

أما أهل البادية ومن بعد عن سماع مطلق العلم ، فلا تسأل عن حالهم ؛ وتجد أذهان أكثر هذا الزمان ، جامدة صعبة الانقياد للفهم . وهناك من جهة أخرى ، من يخوض في فنون ، لا تدفعه إليها ضرورة ولا استعداد ، كأن يخوض في الفلسفة ، وهو لا يملك شيئا من المنطق ، ولا شيئا من التوحيد .

وفي مجال أوضاع المسلمين ، سجل تفتيت الأمة ، وانتشار فتنها ، ومظالم أهل السلطة .

يقول : إنها لظروف قل فيها الخير ، وفشت فيه سوق المظالم والفتن ؛ فاختلطت المفاهيم الخلقية والدينية ، وتداخل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعذرت معرفة الحق وتفاقت المفاصد ، وتجاوزت طاقة العلماء الواقفين للخير حتى اتسع الخرق على الراقع . يقول : لقد " فاض فيها عباب الفتن ، وعمتها سحائب المخالفات " .^٤

ولم يقف أمام تشخيص هذه الأمراض ، موقف المنفرج مكتوف اليدين ، ولم يكتف بالتحليل والتأسف . إنه حلل آفات مجتمعه ، وحل عليها في مؤلفاته

العقائدية . واستقر لديه ، أن أفراده أحوالهم معتلة، ولا بد من معالجتها. وإذا تولى السنوسي تشخيص أمراض مجتمعه ، فليس بدافع الشاؤم ، ولا بقصد تبرير الهروب من ضجة الحياة ، كما يصنع بعض الناقمين على الناس ، ويتخذون من الفرار ملجأ . إنه ينظر إلى هذه الآفات ، كواقع اجتماعي قابل للعلاج .

وطوبا للسلف الصالح ؛ فكانوا معتنين بالدين وتعليمه للأهل والولد والأمة والعبد ، حتى كان الجميع يعرفون ما يخصهم في دينهم أكمل معرفة امثالاً لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا" . وليت أكابر علماء زماننا كانوا في معرفة السنن مثل إمام علماء السلف الصالح ، ونسائهم أو صبيانهم .

ماذا يصنع الرجل الواعي والغيور على أمته وتراثها الديني الأصيل ، أمام هذا الوضع المقلق ؟

هذه إذن ، بعض الدوافع التي كانت وراء مهمة السنوسي . ترى ماذا عن نشاط هاته المهمة ؟

ثانيا: نشاط مهمته

عندما تقع اختلافات متباينة في العقيدة الإسلامية ، وفي هذه الظروف المتدهورة ، يشعر المرء بثقل مهمة الصلاح . ولم يلبث أن أدرك شيخنا ، بأن هذا الصلاح يأتي من بواطن أنفسنا ، لأن أصل الداء والدواء إنما هو في العقيدة التي تملؤنا وتحركنا ، ولأنه بقدر تأسيس العقيدة على قواعد صلبة ، بقدر ما يتحصن صاحبها ، فلا يثني أمام أقوى الطوائر التي تأتي من مذاهب فكرية أو ملل دينية مخالفة ، ولا يتزعزع أمام سلم القيم المتعددة الأبعاد .

إنه لا يدعو فقط ، إلى توثيق العروة العقدية الإسلامية لتوحيد الأمة و"الفوز
بكمال الدارين" ، وإنما يصف أيضا ، الآليات التي يراها مناسبة . ولا يرى في هذا
الشأن ، أنجع من المدرسة وما تستوجه من أطراف فاعلين ووسائل تعليمية من أجل
أن تضطلع برسالتها في تكوين النشء ، وتحصين الأجيال .

ومن ضمن المواد التي كان حريصا على تدريسها ، علم التوحيد ؛ وهو
العلم بلا إله إلا الله محمد رسول ؛ وكان موقع هذا العلم يتوسط عنده مرحلتين ،
الأولى هي علم المنطق ، والثانية هي الذكر .

ففي عقيدته الصغرى المشهورة عالميا ، يقول في افتتاح صفحته الأولى : اعلم
أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام : الوجوب ، والاستحالة ، والجواز . (يبدأ
بالمنطق ،... ثم يأتي في هذا السياق إلى العقيدة) .

وهذا يعني أن المكلف قبل أن يبدأ بالاشتغال بالعلوم الواجبة شرعا ، لا بد
له من أن يأخذ نصيبه الضروري من علم المنطق . يقول : " وليشتغل بعد آلة العقل
، بالعلوم الشرعية ، استفادة وفائدة ، علما وعملا ، بنية خالصة للدار الآخرة ،
والفوز برضا المولى " . "ومعرفة المنطق تستوجب معرفة اللغة (أي العربية) وتركيباتها
وقواعدها . وهو إذ يركز على هذه المعرفة الأولية ، فلأنها تيسر إدراك الأشياء ،
وفهم المعاني . وتحصن المتعلم من سوء الفهم . "

والمنطق قانون عقلي يعتبره الشيخ أداة غزو المجهول ، و توسيع آفاق الفكر
وعصمته من الخطأ . يقول في شرح مختصره : " المنطق قانون يعصم [...] بتوفيق
الله تعالى ، الذهن من الخطأ في فكره ، كما يعصم النحو اللسان من اللحن في قوله
" . " أما الغرض منه ، فهو " التوصل إلى المطالب المجهولة ، وهي منحصرة في

التصور، والتصديق " . "وفي نفس السياق ، يكتب قائلا : " إن علوم المنطق عقلية محضة بخلاف النحو ، فإنه نقلي محض ؛ بغير العربي الفصيح ، لا يصل إلى معانيه ، وأحكامه إلا بالتعلم . ومع ذلك ، فتعلم فن المنطق ، وحفظ قواعده وفهمها ، يسهل للعقل وعر الأنظار ، ويتسع به مجال الفكر مع الراحة ، والأمن من الخطأ " .

ويحتل موقع المنطق في ترتيب مواد التدريس ، المنزلة الثالثة بعد حفظ القرآن كما هي عادة المغاربة ، ومعرفة الضروري من الفقهيات ، وقبل العقيدة التي تلحقه دائما . ويأتي الذكر في مرحلة متأخرة ، بعد ضبط علم التوحيد النظري مع ما تيسر من العلوم المساعدة . يقول في عقيدته الصغرى : فقد بان لك تضمن كلمتي الشهادة مع قلة حروفها ، لجميع ما يجب على المكلف معرفته من عقائد الإيمان في حقه تعالى ، وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام . ولعلها لاختصارها مع اشتغالها على ما ذكرناه ، جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام . ولم يقبل من أحد ، الإيمان إلا بها . فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها ، مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان ، حتى تمتزج مع معناها بلحمه ودمه . فإنه يرى لها من الأسرار والعجائب - إن شاء الله - ما لا يدخل تحت حصر .

وعلم التوحيد عنده كما نلاحظ ، جزآن : العلم بلا إله إلا الله معززا بالعقل والعلم ، والعمل به ؛ ويتعبر آخر ، تملخص المسافة بينهما فيما يلي :

فهم العقيدة أولا ، وهذا بعد معرفة ميزان المنطق ؛ ¹⁵ ورد الشبهات ثانيا ، وهذا من طرف الفرد والجماعة ؛ واستخراج الثمرات منها ثالثا ، وهذا بالدخول في التجربة الذوقية . ولا يتأتى ذلك كله أيضا ، إلا بتعلم العلوم المختلفة . وفيما يتعلق بتدريس الفلسفة ، فإنه لم يرفض هذا النشاط الفكري من الخارج ، جملة وتفصيلا ،

و دون الاتجاه إلى مناقشة انحرافاتهما . لقد قصد عن دراية ، ومن الداخل ، إلى إبطال أطروحاتها في الإلهيات والطبيعات ، أي في قضايا تمسّ الثوابت الدينية والعقلية . فهو هنا ، يحاول - على أساس المنطق اليوناني - نسف قاعدتها المنهجية ، لأن الفكر الإسلامي ينطلق من عقيدة التوحيد المعقّنة، لا من مسلّمات واهية . وهذا ، لا يمنعه من قراءة الفلسفة كنسق قائم بنفسه . فهو لا يسبّ أرسطو ، ولا الكندي ، ولا غيرهما من الفلاسفة ؛ لأنّ الصديق المطلوب في المنطق ، هو صديق الاستدلال ، لا صديق المبادئ والمقدمات . ولكن ، في عقيدة الأشعرى ، لا بدّ للمقدمات من أن تكون على المذهب، لا على أهواء العقول المتغترسة ، ومنطق الأهواء الجموحة .

وعليه ، فمن أراد الفلسفة ، وجب عليه أن يكون متشبعاً بالعلوم الشرعية والعلوم الخادمة لها ، وليصنع ما يشاء . وهكذا ، لم يمنع السنوسي المتعلّم من غزو مجال الفلسفة ، وهو نفسه قرأها واستفاد منها واستثمرها في بعض ما ألف¹⁶ .

فنشاط مهمته يكمن إذن ، في تدريس العقيدة ، وهي معززة بالقانون العقلي ، وفي جعلها مؤهلة لإيصال صاحبها إلى الذكر .

ثالثاً: المبادئ التي تقوم عليها مهمته

يمكن من خلال قراءة مؤلفاته ، التركيز على خمسة مبادئ أساسية ، وهي رفض التقليد، ورفض التفرّج ، وضرورة الاعتماد على العقل باعتباره قاسماً مشتركاً لدى جميع الناس - وهذا في مجالي التعليم والتعلم - والدفاع عن حق احترام الغير وتوحيد الأمة ، وأخيراً ، الجمع بين الدارين .

1- رفض التقليد

لقد ثار ضد التقليد في شؤون الدين نظراً إلى أنه خطر على التجديد والاجتهاد ، وأنه يعرقل الإبداع ويشلّ النظر الصحيح . يقول : إن أحكام الوهم ورسوخ العوائد والمألوفات تراحم النظر الصحيح في هذا العلم .¹⁷

إنه طريقة فاسدة في التعليم ، يرفضها الدين، والعقل، والتربية، والمعرفة ؛ لأنه في أبسط معناه ، إبطال منفعة العقل ، ودعوة إلى التبعية ، وإذعان للشيوخ وغيرهم .

2- رفض التفرج

وفي هذا العالم المتجدد ، يكون خيرا للمرء ، أن يحدد موقفه مما يقرؤه من مذاهب وفلسفات بعد الاطلاع عليها ، من أن تجرفه ، وتحمله إلى حيث لا يدري ؛ لأنه ليس من المصائب التي تسيء إلى التعليم ، أكبر شراً من أن يبقى فيه المعلمون والمتعلمون متفرجين وغير فاعلين .

3- العقل قاسم مشترك في التعليم والتعلم

كل مولود يولد على الفطرة ... ، وفطرته العقل السليم أو كما يقول " البرهان العقلي " وهو الوازع المشترك في التعليم والتعلم .

إن العقيدة المؤسسة على العقل والمطعمة ببراهينه السديدة ، لا تخشى المكاره لمانها وسلامتها . أما إذا كانت قائمة على الاتباعية للعادات الاجتماعية في مجال الإيمان ، وعلى مجرد منطق الأهواء الجموحة ، فإنها آيلة إلى الضعف والانحطاط ، ويتزعزع ما يترتب عنها من أبعاد سلوكية خلقية ودينية وفكرية ...

ولا معنى للتعليم خارج الطريقة العقلانية والبيداغوجية التي رسمها السنوسي لنفسه.

أ- حق التعليم للجميع مع التيسير والاختيار الحر للمتعلم

إن من يتتبع السنوسي في هذا المبدأ ، يلاحظ أن مهمة التعلم ليست تدريساً بالمشاهدة بقدر ما هي تدريسٌ بالمطالعة ؛ ويكتشف بأن هذه المهمة القائمة على

مطالعة الكتب بوجه أخص ، تعمق المسار التعليمي ، وتسهله ، لأن الكتاب التعليمي لا ينبغي أن يؤلف للملء الخزانات أو حشو الأدمغة ، وإنما لغرض استمرارية التعليم ، ولأنه بمثابة المعلم الدائم ، وبمثابة المدرسة التي تسع كل الأماكن في مختلف الأوقات والظروف . وعرفنا أن الصرامة في الدفاع عن تطلعات المدرسة الأصيلة ، تشكل عنده ، التزاما ضروريا في مجال التربية مع تقديرها السليم لما يجري حول هذه المدرسة من تحولات .

وكان بشأن كتبه العقائدية ، حريصا على تعليمه العقيدة للصبيان ذكورا وإناثا ، ولل كبار رجالا ونساء ، على أساس المنطق العقلي ، وعلى قدر ما تسعه عقولهم . وقد جعل الله تعالى في الألفاظ والأدلة سعة . فكل يخاطب على قدر فهمه .¹⁹ ولقد انتشرت كتبه في كل أصقاع العالم ، نظرا إلى وجاهة الموضوع ومنهجية عرضه حتى ثمن أكثر من واحد مستواها وفائدتها .

يقول المستغامي :

فأبدى لنا التوحيد عذبا مخلصا وبالغ في التبين للخلق ناصحا
فخار تلمسان؛ عليك بكتبه فقد فاقت التبر المخلص طافحا
ويقول ابن يباش التازي مشيرا إلى محاسن كتاب العقيدة الصغرى:
عول على كتب الإمام فإنها *** تُغنيك عن طلب الشيوخ وتُسعدُ
ويقول أيضا ، في مدحه لمختصره لإكمال الإكمال:

فبادر لما قد صاغه من جواهر *** تنل كل ما ترجوه من كل بعية
وثبصر حسنا لم ير الناس مثله *** وتذكر أسراراً على قدر لحظة

حوى من لطيف العلم سرُّ لبابه *** وضمَّنه من كل خيرٍ ورفعته
وكانت أساليبه البيداغوجية تستوجب التيسير على المتعلم²⁰ والاكتفاء
بالضروري ، وتدعوه إلى بذل الجهد ، ولا تخلو من عطف ورفق به من طرف
الشيخ في أثناء مؤانسته له ومقارأته.

يقول في مختصره في علم المنطق : فهذه كلمات مختصرة تتضمن ما²¹ يضطر
إليه من علم المنطق ، لتصحيح ما يُكتسب به التصورات والتصديقات ، وترك ما
يشوِّش الفكر مع قلة جدواه ونُدْر استعماله من قواعد وتفرعات .

وفيما يتعلق بالبحث عن الشيوخ ، يقول : وعلى المتعلم أن يبادر بالنظر
فيمن يحقق له هذه العلوم ويختاره للصحة من الأئمة الزاهدين بقلوبهم ، المشفقين
على المساكين ، الرؤفاء على ضعفاء المؤمنين²².

وإذا كان الإيمان بأن الإنسان كائن عاقل²³ يشكل لدى السنوسي المبدأ
الفلسفي الأساسي لمهمته التعليمية ، فكيف يخاطب هذا الجمهور العريض الذي
يشارك أفراداً في العقل ، ويختلفون في درجات أفهامهم ؟ إن التوفيق بين المبدأ
والميدان أوحى له بضرورة التمييز بين مستويات ثلاثة : الخواص ، والعوام ، وما
بينهما .

مستوى الخواص وهم أهل المواهب الذهنية الكبرى ، الطالبون للمزيد من
التفصيل والتدقيق ؛

مستوى العوام ويمثلون " معظم هذه الأمة " ، المقتصرين على الفهم الجملي
وعلى الأهم المختصر ، وهم على ثلاثة أصناف :

1- عامة الناس ؛

2- المسنون ؛

3- النساء والصبيان والإماء والعبيد .

مستوى المتوسطين بين الخواص والعوام ، وهم الذين يتأرجح مستواهم بين مؤهلات الصفوة ، وقدرات عامة الناس .

إن مستويات الناس تختلف فيما بينها ؛ ولكنها لا تنقسم إلى مستوى عقلي ومستوى دون عقلي ، مستوى مخاطبه بلغة البراهين العقلية ، ومستوى مخاطبه بلغة العاطفة فقط²⁴

ألف السنوسي مجموعة من الكتب في العقيدة أهمها : الكبرى والوسطى والصغرى وصغرى الصغرى ؛ وكل عقيدة من هذه العقائد لها أهلها . فهي لا تختلف بوجه عام فيما بينها من حيث الدعائم العقلية التي تقوم عليها ، والروح المنطقية التي كتبت بها ، وإنما تختلف من حيث الحجم . فهو يبدأ بضبط الفكرة إجمالاً ، ثم يفصلها في شروحه تفصيلاً ؛ وإذا عرفنا بأن هذه الفكرة هي مجمل العقيدة ، تبين لنا منهاج السنوسي في الشرح والتحليل ؛ وكأنه يأخذ بطريقة ابن رشد وابن خلدون القائمة على الاستدلال الرياضي أو الاستنتاجي حيث ينطلق من فكرة أو قانون ، ليبرهن على صدقها...

ومما يتميز به أنه لم يخلق على نفسه في دائرة النخبة من العلماء عندما كتب في العقيدة الأشعرية بلغتهم الخاصة ، بل نزل إلى جميع الناس بمختلف فئاتها ، ومخاطبهم كل حسب مستواه .

ب- حق التعلم الذاتي

إنه يدافع بقوة ، عن التعليم الذاتي في مجال طلب العلم والمعرفة ، ولا يميز ذلك في مجال السلوك الصوفي الذي يتطلب مصاحبة الشيخ ؛ كما يدعو إلى تحرر المتعلم من سلطة المعلم وتجبره وابتعاد المدرسة عن السياسة أو التحزب والتشيع في لغة العصر ، بحيث تبقى أهدافها الراشدة ثابتة لا تتأثر بتقلبات السلطة والخلافة .²⁵ وأهم وسيلة وضعها السنوسي لتحقيق هذا النمط من التكوين ، هو كما رأينا ، الكتاب . صحيح لقد مارس التعليم شفويا وبرع فيه ، ولكنه كان يدعو إلى التعليم بالمطالعة أو بالمراسلة بلغة اليوم . وبهذا ، يحقق المتعلم استقلاليته في الوصول إلى المعلومة ، ومعالجتها ، واستثمارها طبقا لما تدعو الحاجة إليه .²⁶

ولكن السنوسي على يقين بأن العلماء الحقيقيين ، وجودهم نادر جدا . فهو لا يشترط أن يكون النظر حتما عن طريق معلم كما ترى ذلك فرقة الباطنية . " يكفي النظر المؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، وإن كان بغير معلم ، خلافا للإسماعيلية [التي تقول] : حصوله بغيره عسير غاية العسر " . " وكأنه يشير إلى أنه هو في تأليفاته ، يمكنه أن يكون هذا المعلم لكل مسلم لا بل ولكل من يريد أن يدقق العلم . وينقل السنوسي عن غيره القول : " إن شيخ التعليم تكفي عنه الكتب لمن له عقل وذكاء وإلا فلا " .²⁷

ويقول في هذا السياق وبشأن تعلم المنطق : " وفهم ما ذكر في هذا المختصر ، يتضمن بفضل الله ، فهمه من المطولات من غير تكليف ولا احتياج إلى معلم " . " وهذا هو الأسلوب الحديث في البحث عن المعلومة اليوم ، في الأنترنت . وهو على علم أن المختصرات بطبعها ، بعيدة عن متناول المتعلمين لشدة تركيزها .

يقول في شرحه لكبراه : لا بد من تحصيل العلوم من طرقها المألوفة وهو الاجتهاد³¹ في النظر والتعلم . وقد روي في الحديث " لا يستطيع العلم براحة الجسم واطلبوا العلم ولو في الصين " وورد : " إنما العلم بالتعلم " .³²

4- حق احترام الغير وتوحيد الأمة

وكان يدعو إلى احترام الغير في دينه ويتجنب في مجال الإيمان ، إصدار أحكام القيمة من خلال السلوكات المظهرية .

إن الإيمان لما كان مرجعه إلى المعرفة ، والمعرفة من السرائر والله سبحانه متوليها ، فلا تعرف إلا من قبله ؛ لأن هذا الإيمان " من الباطن الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل " (البخاري ومسلم وغيرهما) . هذا كله في حق الغير المظهر للإيمان ؛ وأما الإنسان في نفسه ، فهو أعرف بحاله إن كان عاقلاً .³³ وفي سياق حديثه عن أهل التصوف والأحوال ، [يقول] : فلا علم لي إلا بحال نفسي ؛ وحال غيري لا أعرفه إلا بإنباء صادق في العادة ولم يوجد ؛ وما تدعيه الصوفية ، لم نميزه ؛ فنعلم أن ذلك المدرك يرجع إلى الذات من وجه .³⁴

5 - الجمع بين الدارين بين الدنيا والآخرة

لقد ركز في مهمته على التعليم ووسائله البيداغوجية ، كما ركز على ضرورة تحصين الفرد والمجتمع بعلم التوحيد المطعم بالبراهين العقلية الساطعة ، ودعا إلى استثمار هذا العلم في مجال التجربة الذوقية تقرباً من الله تعالى . إنه لم يذخر جهداً في الدعوة إلى توثيق العروة العقدية الإسلامية ، لتوحيد الأمة والحث على العمل من أجل " الفوز بكمال الدارين " .³⁵

إن الظروف السيئة التي حاصرت السنوسي ، وجدت في الرجل الحكمة اللازمة التي مكنته من تشخيص آفاتها ووصف الدواء المناسب لمعالجتها . ولم يكن مخطئا عندما بدأ المعالجة من بواطن الناس ، فأصلح فيهم العقيدة وحصنها بالبراهين العقلية وجعل منها ثمرة للقلوب يتلذذ بها كل عاقل بلحمه ودمه ، ويتأهل لتلقي ما يجود به الله تعالى من أنوار . وبهذا ، لم يستجب فقط لنداء الأمة ، بل استجاب أيضا ، لنداء الأشعرية ، فأنقذها في فترة الخطاها .

إن التجربة التي عاشها السنوسي في مواجهة الحياة ، لا يمكنها أن تمر دون أن ندرك مغزاها في توحيد المجتمع وإصلاحه وتحسينه من الملل والنحل والمذاهب التي قصدها النيل من العقل المنير والإسلام الحنيف .

الهوامش:

- 1- توفي السنوسي وعمره ثلاث وستون سنة هجرية حسب الرواية الثانية التي يحكيها صاحب البستان عن الملاي.
- 2- والذين اهتموا به في عصره وبعده ، ألفوا - بين شارح ومحش ومختصر وناظم ومعجب ومقلد - عشرات الآلاف من الصفحات، مما ثُملاً بها رفوف متعددة في المكتبة.
- 3- تعرض للإفتاء من ليس أهلاً له. ولعل السبب في ذلك انتشار المذهب الظاهري في ذلك العصر. فقد فهم الناس تحت سلطانه أنه يجب عليهم الاجتهاد واستنباط الأحكام ورفض التقليد.
- 4- يقول الدسوقي بأن العقباني وهو أحد معاصري السنوسي، كان يعتقد أموراً فاسدة منها: أن كلام الله مركب من الحروف والأصوات، وأن صفات الله ممكنة بذاتها واجبة بغيرها، لأن الذات أثرت فيها بطريق العلة. [إلا أنه لم يشر أي العقابنة يقصد؛ فثمة سلسلة منهم، نكتفي بذكر ما يلي: سعيد العقباني (ن. 1408) وأبو الفضل قاسم 1450، ومحمد بن أحمد بن قاسم 1466، وسالم. والغريب أن أمهات التراجم لا تشير إلى شيء من هذه الأفكار الاعتزالية عندما تعرضت لشخصية من هذه الشخصيات، اللهم إلا إذا كان العلم بالمعقول اعتزالاً].
- 5- السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص، 21-22.
- 6- فهو لا يمنع هاته الكتب إلا عن من لم يصل بعد إلى إتقان عقيدته.
- 7- السنوسي، المصدر السابق، ص، 326. لقد استولى البرتغال على مدينة سبتة المغربية قبل ولادة السنوسي بأربع عشرة سنة. وفي 1479 يوقع مع إسبانيا معاهدة ألكاصوباس Alcaçovas تسمح باقتسام مقاطعات النفوذ بالملكة المغربية. وفي 1668، تستولي إسبانيا على سبتة بعد اعتراضها باستقلال البرتغال. وكان على وعي بهذا الاجتياح والتهديد.
- 8 - السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص، 20-21.
- 9 - السنوسي، المصدر السابق، ص، 03.
- 10- السنوسي، شرح مخ في المنطق³ظ. انظر الجمل الأولى في متن الصغرى.
- 11- فقد يؤدي الجهل بالقواعد العقلية (واللغة العربية) إلى الكفر أو البدعة (المقدمات¹¹⁵؛ شرحها 137-143). المنطق يساعد على معرفة الآليات العقلية التي يعبر بها الإنسان عن تصوراتهِ وتصديقاتهِ من خلال الأدوات اللغوية (و- في حين - بينما - بيد أن - إذن - هكذا - لأن - مهما

كان - إذا كان - بقدر... والجهل بالألفاظ وبطريقة تركيباتها يشوش الفهم ويعرقل التفاهم. كلمة منطق باليونانية تعني أصلاً، النطق أو اللغة وهي ما ينظمه النحو في قواعد. والأهم هو دراسة اللغة كبرهنة واستدلال وحجاج ودحض .

12 - السنوسي، المصدر السابق ، الورقة: 50.

13 - السنوسي ، المصدر السابق .

14- السنوسي ، المصدر السابق .

15- المنطق هو مدخل إلى علم التوحيد.

16- من مؤلفاته، شرح على جواهر العلوم للعضد في فن الكلام على طريق الحكماء وهو كتاب عجيب في ذلك الفن إلا أنه صعب متعسر جداً على الأفهام.

شرح على كتاب لبعض المشارقة وهو على نهج طوابع البيضاوي بل أصعب ولم أر هذا الشرح إلا أن الشيخ أخبرني به وبهذا الكتاب، وقال في هذا الكتاب "هو [س] على نهج البيضاوي بل كلام البيضاوي أسهل بالنسبة إلى هذا الكتاب، قال: والبيضاوي نقطة من بحر هذا الكتاب... وكلامه صعب في غاية الصعوبة... وشرحته بكلام صعب إلا أنه أبين

من هذا المشروح؛ قال: ولما شرحته رفعه بعض الطلبة إلى بعض من عاصرنا من العلماء... وأوصيت الطالب ألا يقول لأحد فلان، يعني نفسه الذي شرح هذا الكتاب... فقال لي (الملاي): فقال الطالب للعالم: يا سيدي أحب أن أقرأ عليك هذا الكتاب المشرقي مع شرحه، فقال لي العالم وهل شرحه أحد، قال نعم. قال فأخرجه إليه وأراه إياه وظن العالم أن هذا الشرح قديم ولم يعلم بأنه شرحي. فقال فقرأ الطالب شيئاً من هذا الشرح فقال له العالم أعد عليّ قراءته، فأعاده فلم يفهمه هذا العالم. قال فقال له العالم: هذا الشرح لا يفهمه إلا الذي وضعه وأنا لم أفهم ما يقول شارح هذا الكتاب، الله يرحم هذا الشارح أو كما قال. وسمى لي الشيخ اسم هذا العالم ولا يسعني تعيينه. وعنوانه سماه الشيخ لم أعد أذكره لعدم الاهتمام والتنبيه. ((عن الملاي ، المواهب القدسية ، مخطوط لمصطفى العشعاشي))

هذا فضلاً، عن أن الفلسفة لا تدرس عندنا ولا عند غيرنا في سن مبكرة في الطورين الابتدائي والإكمالي. إنها مؤجلة للدراسات الثانوية والجامعية.

17 - السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص، 38.

18- السنوسي ، المصدر السابق ، ص، 33 .

- 19- السنوسي، المصدر السابق ، ص، 15.
- 20- يجتم بعد شرح كل مقطع أو مقاطع (في الكبرى).
- 21- يركز الشيخ على مرحلة البلوغ (ش ك 3 و 11).
- 22- السنوسي، شرح أم البراهين، ص، 60-61.
- 23- كما حدده إ. كائط ومعناه العقل النظري.
- 24- وهذا يختلف عنه لدى الغزالي: (عوام هم البُلَّةُ أهل الجنة) خواص أهل البصيرة والذكاء (طائفة هم أهل الجدل والشغب.
- 25 - لقد عرض عليه السلطان صاحب تلمسان (أبو العباس أحمد المعتصم الذي تولى الحكم الزياني بين 834 و 866 وكان ذلك في عهد أبي عمرو عثمان الحفصي) . ولقد كان حياؤه الذي يمثلته امتلاء، يشفع فيه لدى السلطان وخاصة عندما يدعوه إليه السلطان أو يزوره في موقع تدريسه.
- 26- السنوسي، شرح أم البراهين، ص، 60-61.
- 27- عليش، شرح العقيدة الكبرى، ص، 6.
- 28- السنوسي، نصره الفقير ، الورقة 7.
- 29- السنوسي، شرح مخ في المنطق الورقة 1.
- 30- يقصد: يجاهد في تعلم العلم ش ك 30 .
- 31- السنوسي، شرح العقيدة الكبرى، ص، 16. (التعلم والتعليم ش ك: ص 29).
- 32- السنوسي، المصدر السابق ، ص، 40.
- 33- السنوسي، المصدر السابق ، ص، 128.
- 34- السنوسي، المصدر السابق ، ص، 03 .

